ثورات الشرق وظلم المستعمرين

النقيب المهندس سليمان هارون

في مقال لبرنارد لويس نشر سنة ١٩٩٠ بعنوان "جذور الغضب الاسلامي"، يتساءل الكاتب : "لماذا يكره المسلمون الغرب الى هذه الدرجة، ولماذا لا يمكن تبديد مرارتهم هذه بسهولة؟" ويقول :"هذه العدائية تصبح احياناً رفضاً للحضارة الغربية بحد ذاتها، ليس فقط بسبب ما ينتج عن هذه الحضارة ولكن بسبب ما بنيت عليه، والمبادئ والقيم التي تبشر بها وتمارسها".
وفي سنة ١٩٩٣ وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة نشر صامويل هانتينغتون مقاله الشهير "صراع الحضارات"، وكتب فيه : "انني اعتبر ان جذور الصراعات في هذا العالم الجديد، لن تكون بشكل اساسي عقائدية او اقتصادية. ان السبب الاول للانقسامات الكبيرة بين البشر وللصراعات بينهم سوف يكون ثقافياً بامتياز".

ثم يذهب هانتينغتون في نظريته ويقسم العالم الى ثمانية حضارات، ومن بينها ما يعنينا في هذا المقال: الحضارة الغربية وتضم اميركا وكندا واوروبا واوستراليا، والحضارة الاسلامية في الشرق الاوسط وشمالي افريقيا وشرق آسيا. هكذا يكون هذان المفكران المرموقان قد قفزا فوق الآثار المدمرة التي تركها الاستعمار الاوروبي لدول المنطقة والذي امتد من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين والدور الذي لعبه في الهاب مشاعر سكان البلاد المستعمرة ضد الغرب .

ففي مصر اسس الشيخ حسن البنا حركة الاخوان المسلمين في آذار من سنة ١٩٢٨ مع حفنة من العاملين في شركة قناة السويس الذين جاؤوا يشكون له المعاملة السيئة التي كانوا يعانون منها على يد الانكليز المسيطرين آنذاك على مقدرات البلاد. وسرعان ما انتشرت هذه الحركة مثل النار في الهشيم في كل المحافظات المصرية على خلفية العداء للانكليز والطبقة المصرية الحاكمة وبلغت اعداد الناشطين فيها مئات الالوف في اقل من عقد من الزمن. ففي الوقت الذي كان فيها العمال المصريون يرزحون تحت عبء الفقر والعوز، ويعيشون في اكواخ بائسة، كان "المستعمرون الانكليز" يجنون الثروات ويعيشون في القصور ويقيمون الحفلات على مرأى ومسمع منهم مع قلة من المحظوظين المصريين، وقد كانت نقمة الشعب كبيرة كذلك على الطبقة السياسية المصرية الحاكمة لانها اما كانت خاضعة للانكليز او متواطئة معهم، او في احسن الاحوال تحاول الوقوف في وجههم ولكن بخفر وبأقل من القوة المطلوبة.
لقد اغتيل الشيخ حسن البنا في ١٢ شباط ١٩٤٩، واستمرت حركة الاخوان من بعده مع سيد قطب الاكثر

تشدداً، وازداد عدد المنضوين اليها وتفرّع عنها حركات اسلامية راديكالية مع عبد الله عزام وايمن الظواهري وصولاً الى اسامة بن لادن والى الشعار الذي رفعه هؤلاء: "الجهاد والبندقية فقط : لا مفاوضات ولا مؤتمرات ولا حوارات".
في ايران، وفي ١٩ آب ١٩٥٣، اطاح انقلاب وافق عليه الشاه وبدعم من المخابرات الاميركية والانكليزية برئيس الوزراء المنتخب محمد مصدق لانه امّم صناعة النفط الايرانية التي كانت تحت السيطرة الانكليزية منذ سنة ١٩١٣ . وخلال محاكمته بتهمة الخيانة العظمى في المحكمة العسكرية في ١٩٥٣/١٢/١٩ قال مصدق مدافعاً عن نفسه: "... ببركة الله وبمشيئة الشعب، حاربت هذا النظام العالمي المتوحش والمرعب والمبني على التجسس والاستعمار ... انني على يقين ان قدري ان اكون مثالاً في المستقبل يحتذى في منطقة الشرق الاوسط لكسر سلاسل وقيود الاستعباد والعمالة للمصالح الاستعمارية" .

سنوات قليلة بعد سقوط مصدق لمع اسم استاذ جامعي يحمل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع من جامعة السوربون في باريس هو علي شريعتي. وهو احد ابرز المفكرين الاسلاميين الذي ساهموا بفكرهم في قيام الثورة الاسلامية في ايران. كانت قاعات محاضراته تغصّ بالتلاميذ من كافة شرائح الشعب الذي فتنوا بافكاره، فهو بدأ يشرح مشاكل المجتمعات الاسلامية ويناقش مع تلاميذه كيفية معالجتها على ضوء مبادئ الدين. وهو صاحب القول : "كل يوم هو عاشوراء وكل مكان هو كربلاء" وازاء تنامي شعبيته وانتشار افكاره بين جيل الشباب، كبرت مخاوف الشاه منه فسجنه لمدة سنة ونصف بعدها غادر الى لندن حيث توفي في ١٩ حزيران ١٩٧٧ في ظروف غامضة وحامت الشبهات فيها حول جهاز الاستخبارات "السافاك" والمخابرات البريطانية. لم تمر سنوات كثيرة حتى اطاحت الثورة الاسلامية بالشاه وحكمه الموالي للغرب والكل يعرف باقي الحكاية.
في الجزائر استمرت حرب التحرير ضد الوجود الفرنسي من سنة ١٩٥٤ ولغاية سنة ١٩٦٢ بعد اكثر من قرن على نزول الجنود الفرنسيين في العاصمة الجزائرية. مئات الالوف من القتلى ومجازر ضد المدنيين وانهر من الدم وخلافات بين الفرنسيين والجزائريين حتى على توصيف ما حدث خلال هذه السنوات الثمانية، فاولئك يسمونها "احداث الجزائر" وهؤلاء يسمونها "حرب التحرير" او "حرب الاستقلال" لانه في نظر الفرنسيين، الجزائر لم تكن دولة وفق القانون الدولي وبالتالي لا يحق لها قانوناً اعلان حرب على فرنسا.
طبعاً كان يترافق دائماً مع كل هذه الحركات والحروب ضد المستعمر خلافات وحروب بين اهالي البلد انفسهم على خلفيات مختلفة دينية واجتماعية وعقائدية ومصالح شخصية وهو ما كانت تستغله وتغذيه الدولة المستعمرة وبقيت هذه الخلافات واحياناً لمدة طويلة بعد خروج المستعمر.
امثلة ثلاث عن التجربة الاستعمارية في اكبر ثلاثة بلدان في منطقة الشرق الاوسط. لقد ساهم الوجود الغربي وما نتج عنه خلال هذه الفترة في دفع شعوبها نحو الاصولية، وكانت الطامة الكبرى في نكبة فلسطين والدور الذي لعبه الغرب المستعمر في تسليمها الى الصهاينة وتشريد شعبها الذي ما زال يعيش في المخيمات وفي ظروف قادرة ان تجعل من كل شاب وفتاة يعيش فيها اشبه بقنبلة متنقلة.

طبعاً ان احداث هذه الحقبة الممتدة منذ اواسط القرن التاسع عشر ولغاية اواسط القرن العشرين ليست وحدها سبباً لسوء العلاقة بين شعوب الشرق الاوسط والغرب. فالصراعات بينهما تمتد على مدى قرون، من الفتح الاسلامي الى الحملات الصليبية الى سقوط بيزنطية وقيام الدولة العثمانية وصراعاتها مع الدول الاوروبية ... وفي الوقت الذي تمكنت اخيراً اوروبا ومعها اميركا التي استوطنها بشكل اساسي الاوروبيون من التوصل الى مجتمعات تعيش بسلام في ظل انظمة ديمقراطية مدنية، ما زلنا نحن نتلمس طريقنا نحو الاستقرار الاجتماعي، والافق يبدو مسدوداً، في ظل انقسامات تنتقل بين دولة واخرى، والى داخل كل دولة ثم بين مدينة واخرى ومذهب وآخر، ولم يتوان ملك الاردن عبدالله الثاني عن القول عن هذه الاخيرة "انها باقية الى يوم الدين".